دراسة أدب ما بعد الاستعمار والموقف الاستعماري

لروايتي (قلب الظلام) لجوزيف كونراد

و(موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح

مقاربة مقارنة

إعداد

الباحثة/ عنايات عمران أحمد حمادى

باحثة دكتوراه كلية الآداب – جامعة أسوان

أهمية الدراسة

جاءت الدراسة في ظل الاهتمام بالنتاج الأدبي في الفترتين (ماقبل الاستعمار – وفترة المابعد)

ذلك لما يحتويه هذا النتاج من تكثيف للحقائق والمشاعر الإنسانية، كما أنه رصد التغيرات التي تميزت المجتمعات من طابع ثقافي واجتماعي واقتصادي وسياسيي تم تصويره من خلال الأعمال الناتجة في تلك الفترة، وعلي اعتبار أن الأدب مرآة عصره جاءت جميع الأعمال في تلك الفترة كاشفة للتغيرات المجتمعية في أدق صورها.

كما أن الدراسة أخضت الروايتين محل الدراسة لأدوات المقارنة من خلال استخدام المنهج المقارن وأدواته المختلفة لمناسبته لموضوع الدراسة والمنهج الكولونيالى الذي اهتم بالأعمال الأدبية التي تحدثت عن فترة مابعد الاستعمار.

استخدم مصطلح ما بعد الاستعمار ليعبر عن مجمل النتاج الأدبي والثقافي والاجتماعي المنبثق عن سياسات الاستعمار وأفكاره. لذلك تعد نظرية ما بعد الاستعمار أو النظرية مابعد الكولونيالية colonial Discoures and past colonial theorie

قراءة للفكر الغربي في تعامله مع الشرق، من خلال مقاربة مقارنة بأبعادها السياسية والتاريخية وبتعبير آخر، تحلل هذه النظرية الخطاب الاستعماري في جميع مكوناته الذهنية والمنهجية والمقصدية تفكيكًا وتركيبًا وتقويضًا، بغية استكشاف الأنساق الثقافية المؤسساتية المضمرة التي تتحكم في هذا الخطاب المركزي

وقد كانت على رأس هذه المشاكل ثنائية الشرق والغرب في إطارها العسكري والحضاري و القيمي والثقافي، كما تعمل هذه النظرية الأدبية النقدية المقارنة على اكتشاف مواطن الاختلاف بين الشرق والغرب، وتحديد أنماط التفكير ومحاولة

النظر إلى الشرق والغرب معا بعيداً عن التقسيمات الأخرى التي كان مفادهـــا أن الغرب دائماً ما يرى الشرق آخر، وليس جزءاً من الحضارة الإنسانية، وأول مـــن أثار هذه القضية إدوارد سعيد في كتابة "الاستشراق " .

" الشرق ليس مجرد مكان متاخم لأوربا، بل هو أيضاً مكان لأعظم مســتعمرات أوربا وأغناها وأقدمها.إنه مصدر حضارتها ولغاتها، وغريمها الثقافي، وواحد من أعمق تصوراتها عن الآخر وأكثرها إلحاحاً أضف إلى هذا أن الشرق قد ساعد في تحديد ماهية أوربا (أو ماهية الغرب) بصفته الصورة المقابلة "[١].

ومن هنا بدأت تتبلور المفاهيم العامة عن أدب ما بعد الاستعمار، حيث نال حظاً لا بأس به من الدراسات النقدية الحديثة، وإن كان في حد ذاته منهجـــاً مـــن منـــاهج البحث في الأعمال التي تحدثت عن الاستعمار وآثاره على المجتمعات الإنسانية.

" أما نظرية ما بعد الاستعمار، فواحدة من نظريات ال (مـــا بعـــد) : مـــا بعـــد البنيوية، وما بعد الحداثة، وما بعد الاستعمار، وهي النظريات التي راحت – علي مدار العقود الثلاثة الماضية – تتكاثر وتهيمن علي الساحة الثقافية، وتنتقـــل مـــن حقل من حقول الثقافة إلي آخر: من السياسة والاقتصـــاد، إلـــي الفلســـفة، إلـــي الأنثربولوجيا، إلي التاريخ والجغرافيا، إلي الأدب والنقد الأدبي."[٢]

فالدراسات ما بعد الكولونيالية " ظهرت بعد سيطرة البنيوية على الحقـــل الثقـــافي الغربي . وبعد أن هيمنت المثيولوجيا البيضاء على الفكر العالمي، وأصبح الغرب مصدر العلم والمعرفة والإبداع، وموطن النظريات والمناهج العلمية "[٣].

---

[١] - said,Edward.Orientlism,pantheon Book,NewYork,1978,pp;1-3

[٢] – عدوى الرحيل، " موسم الهجرة إلي الشمال" ونظرية ما بعد الاستعمار، خيري دومة ، دار أزمنة للنشر والتوزيع، ط أولي، ص٧.

[٣] –دليل الناقد الأدبي، تأليف سعد البازغى وميجان الرويلى، بيروت، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠،ص ١٥٩.

ومن ثَم أصبح الغرب هو المركز، بما يمتلكه من فكر سلطوي يرى من خلاله تفوقه علي الأخر ولذلك وجب السيطرة عليه؛ لأنه لا يعي الحضارة ولا يمتلك حق المعرفة.

إذن هو الآخر الجاهل المغيب البغيض كما كان يصفه البعض، وجاءت التفرقة بناءً على الفصيلة لا على الجنس والنوع

وفى المقابل تشكلت أطر الدفاع من قبل الدول التي عانت من ويلات الاستعمار، في محاولة التعبير عن تلك الحقبة الزمنية والتاريخية في حياة شعوبها، معبرة عن ذلك من خلال نتاجها الأدبي بكافة صورة .

لنبدأ في رصد للحالات الأدبية التي أصبحت تمثل وتعبر عن أدب (ما بعد الاستعمار) بوصفه " مقولة سياسية في أساسها، إنه مصطلح مختصر، يحاول العثور على قاسم مشترك بين مجتمعات العالم الثالث، التي أسست على قوميات مختلفة نهضت في مواجهة الاستعمار الأوربي وما تركه من آثار، كما يحاول المصطلح أيضاً العثور على قاسم مشترك بين ما انتجته هذه المجتمعات من فنون وآداب"[١].

ولقدا أصبحت دراسات ما بعد الاستعمار مجالا مرموقا، ونالت حظا لا بأس به من الوعي والاهتمام منذ أواخر السبعينيات، كما أن النظرية نالت العديد من التعريفات ومنها.

"ما بعد الاستعماري يستخدم ليغطى كل الثقافات التي تأثرت بالعملية الإمبريالية من لحظة الاستعمار حتى يومنا الحالي، ذلك أن هناك خطاً متصلاً من الاهتمامات، على مدار العملية التاريخية التي بدأها العدوان الإمبريالي .... فإن

[١]- عدوى الرحيل، خيري دومة، ص١٤.

نظرية ما بعد الاستعمار تهتم بالعالم كما كان خلال فترة الهيمنة الإمبريالية الأوربية وبعدها، وتأثير ذلك على الآداب المعاصرة ".[١]

بعد انتهاء الاستعمار بدأت الشعوب المتأثرة من تجربة المستعِمر في استنطاق نتاجها الأدبي معبرة عن هذه المرحلة بكافة صورها ومراحلها.

مما علق عليه البعض بما بعد الاستعمار، بمعنى أن هذه الشعوب سوف تئن أكان من وجود الاستعمار أم من وجود أثاره.

وهنا يجب أن نفرق بين مصطلحي الخطاب الاستعماري والنظرية ما بعد الاستعمارية.

" فيشير هذان المصطلحان اللذان يكملان بعضهما بعضا إلى حقل من التحليل ليس جديداً بحد ذاته، ولكن معالمه النظرية والمنهجية لم تتضح في الغرب إلا مؤخراً مع تكثيف الاهتمام به، وازدياد الدراسات حوله. حيث يشير المصطلح الأول إلى تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات من نتاج يعبر عن توجهات استعماريه إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب.

أما المصطلح الثاني" النظرية ما بعد الاستعمارية " إذ يشير إلى نوع آخر من التحليل ينطلق من فرضية أن الاستعمار التقليدي قد انتهى، وان مرحلة من الهيمنة تسمى أحياناً المرحلة الإمبريالية أو الكولونيالية، قد حلت وخلقت ظروفاً مختلفة تستدعى تحليلاً من نوع معين.

ولذا فإن المصطلحين ينطلقان من وجهات نظر متعارضة فيما يتصل بقراءة التاريخ وإن كان ذلك اختلافاً في التفاصيل لا في الجوهر، فبينما يرى بعضهم انتهاء مرحلة الاستعمار التقليدي، وبالتالي انتهاء الخطاب المتصل به، وضرورة أن يرتكز البحث في ملامح المرحلة التالية، وهى مرحلة ما بعد الاستعمار، يرى

[١]- literatures, Routledge, London and New Yoruek, 1989,p:2.

بعضهم الأخر أن الخطاب الاستعماري ما يزال قائماً وأن فرضية ال "ما بعد" لا مبرر لها."[١]

ومن هنا جاءت نظرية ال (ما بعد) رداً على الخطاب المتعالي الغربي بغرض فضح سياسات الاستعمار وطغيانه ومن ثَم جاء الخطاب الثقافي الغربي بنزعة التمركز وتأكيد صفات التفوق والتمدن والتحضر.

وذلك في مقابل خطاب دوني يتصف بالبدائية، والشعوذة، والشهوانية، والرغبة المبهمة أسبابها في الخضوع للآخر وتعظيمه.

وهنا طرحت نظرية ال (ما بعد) مجموعة من الإشكاليات الجوهرية التي تتعرض لعلاقة الأنا بالآخر، وعلاقة الشرق بالغرب على شكل افتراضات.

" كيف أثرت تجربة الاستعمار على هؤلاء الذين استُعمِروا من ناحية، وأولئك الذين قاموا بالاستعمار من ناحية أخرى؟ وكيف تمكنت القوى الاستعمارية من التحكم في هذه المساحة الواسعة من العالم غير الغربي؟ ما الآثار التي تركها التعليم الاستعماري والعلم والتكنولوجيا الاستعمارية في مجتمعات ما بعد الاستعمار؟... هل تركز الصياغات الغربية لما بعد الاستعمار على فكرة التهجين أكثر مما تركز على الوقائع الفعلية؟ هل ينبغي استمرار معاداة الاستعمار عبر العودة الحادة إلى الماضي السابق على فترة الاستعمار؟ وكيف أدت مسائل الجنس والنوع والطبقة دوراً في الخطاب الاستعماري وما بعد الاستعماري؟ هل حلت أشكال جديدة من الإمبريالية محل الاستعمار؟ وكيف؟ "[٢]

---

[١]– دليل الناقد الأدبي، سعد البازغى وميجان الرويلى، ص٩١-٩٢.

[٢]– جاءت هذه الأسئلة في نهاية مقالة تعريفية على شبكة المعلومات الدولية تحت هذا العنوان

Deepike a Bahri, Introduction to post colonaial studies, fal 1996.

. Edu/English/Faculty/bahriwww.emory

وتأتى الإجابة عن جميع هذه الفرضيات والأسئلة في شكل سردي كانت الرواية هي الحاضن والمبدع الأساس له، وتوالت الكتابات توضح وترسم، تشجب وتدين، وتصحح المفاهيم والأفكار والمعتقدات التي حاول الخطاب الغربي رسمها عن الشعوب الأخرى .

فالرواية " هي النوع الأدبي المركزي في أدب ما بعد الاستعمار. لا يكاد يزاحمها في هذه المكانة نوع أدبي آخر وهذا أمر بدهى، لأنها نوع ينهض بطبيعته على تمثيل الواقع، ولذلك فهو الأقدر على تمثيل مجتمعات ما بعد الاستعمار، وعرض تناقضاتها وأصواتها المتضاربة."[١]

ومن هنا كان اختيار روايتي: موسم الهجرة إلى الشمال، وقلب الظلام لما بهما من محاولات حثيثة حذرة للإجابة على هذه الأسئلة سالفة الذكر ووضع حلول لهذه الفرضيات.

ومن ثَم يمكننا القول أن موسم الهجرة إلى الشمال تمثل أدب ما بعد الاستعمار و قلب الظلام هي أدب الاستعمار نفسه، وفى نفس الوقت ممهده ومشرفة أيضاً عليه، ومن هنا يتحول المسمى إلى:

(أدب الاستعمار) (أدب ما بعد الاستعمار)

(قلب الظلام) (موسم الهجرة إلى الشمال)

فصرح الطيب صالح في أكثر من لقاء صحفي بأنه ربما قد تأثر ببعض من كونراد في روايته قلب الظلام بحكم أنه اطلع عليها " وقد كشف الكاتب عن استلهامه تجربه كونراد خاصة في رواية "قلب الظلام" بحيث بدت "موسم الهجرة

[١]– عدوى الرحيل، خيري دومة، ص٤٤ .

إلى الشمال" رداً على " قلب الظلام" التي كانت هجرة مع الاستعمار في نهاية القرن التاسع عشر إلى الجنوب، أو إلى أفريقيا حيث يوجد قلب الظلام"[١].

ولكن لا نعول هنا على التأثير الروائي فقط، ولكن التأثير القائم بالفعل هو تأثير التجربة.

تجربة الاستعمار، بل نقول وحدة التجربة، فإن لم يكن التقاء أشخاص فهو التقاء تجارب ورؤى. من خلال منظور معاكس.

" فإن غالبية الدراسات في نظرية ما بعد الاستعمار، تتحدث عن الاستعمار بوصفه " تجربة" التقى فيها مختلفان، أحدهما ب " الآخر "، مما أفضى إلى التأثير العميق فيهما معاً، وتغير مفاهيمهما معًا عن الحياة والفلسفة والأدب، ونادراً ما ينظر إلى هذه التجربة باعتبارها تجربة صدام عنيف دامٍ لم ينته، تجربة اقتحام وغزو كان تأثيرهما في اتجاه واحد، لمصلحة طرف ضد طرف آخر."[٢]

ولهذا كان إخضاع النص الروائي للمقارنة التجريبية المعاكسة لاستنطاق النصين والتحقق من مضمونهما، يعد تجربة أقرب إلى الحقيقة في رصد حقب وفترات متباعدة، بينهما فقط روابط مشتركة " فالأدب مرآة ذات طبيعة شديدة الخصوصية إذ تُسقط وتُضمنُ، تُخفى وتُظهر، تنحاز وتفضح انحيازها، إنها مرآة عمياء وعاكسة في الوقت نفسه.

١- كلمة للطيب صالح ضمن مقدمة منى أميونى للكتاب الذي حررته عن رواية موسم الهجرة:

Amyuni,MonaTakieddine. Introdaction.

٢- عدوى الرحيل، خيري دومة، ص٢٣ .

وبكم هذا التناقض في البنية الكلية للنص يمنحه معناه"[١]

نشر (جوزيف كونراد) روايته القصيرة مسلسلة في أعداد فبراير ومارس وأبريل ١٨٩٩ في مجلة بلاكوود فربما أراد أن يكتب نصاً ضد الاستعمار، ولكن تغير عليه الأمر بعد ذلك، ففي بداية نصه أراد" كشف زيف الادعاءات الاستعمارية"[٢]

ولكن تحول الأمر معه في الاتجاه المعاكس والمغاير تماماً " ربما أراد أيضاً التخفيف أو التخلص من الآثار الكابوسية لرحلته إلى الكونغو"[٣].

جاءت رواية (كونراد) متوافقة تمامًا مع فكره، واعتقاداته السياسية في هذه الفترة، " فالعلاقة بين الكاتب وواقعة التاريخي علاقة مركبة وملتبسة تجعل من روايته لعصره رواية ناقصة، فالكاتب، في نهاية المطاف، ليس سوي فرد يدير علاقته بزمانه وواقعه الاجتماعي عبر منظور أيديولوجي ." [٤] .

علي الرغم من محاولة الكاتب كشف الأعمال الوحشية التي كان يرتكبها المستعِمر، إلا أنه ظل مؤيد لسياسته بلاده، بل ويرى فيها النور لقلب الظلام.

" في رواية (كونراد) محاولة لتقديم هوة (يعتقد الكاتب بوجودها) بين الاستعمار كفكرة والاستعمار كممارسة : فكرة نقل الحضارة إلي أفريقيا والنهوض بأهلها من جانب، والواقع المُزرى للفكرة في الممارسة من جانب آخر. إن استجابة مارلو، الراوي، لحديث عمته عن الأفارقة، وأساليب حياتهم الفظيعة، وضرورة تنشئتهم

---

[١]–دراسة نشرت باللغة الانجليزية عام ١٩٨٣ بعنوان

SIGNIFICANT Incongruities: Areassesment of corads Heart of Darkness .-

[٢]-. Josef Conrad, Youth, Heart of Darkness and the End of the tether, London 1961

[٣]–صيادوا الذاكرة، رضوى عاشور، ص ١٤٦.

[٤]– المرجع السابق، ص ١٤٥ .

علي أساليب مختلفة، استجابة لا تخلو من الشك والسخرية، ... ويسخر من المستعمرين ويصفهم بالجشع والشهوانية والانحطاط ."[١]

في حين كتب الطيب صالح روايته بعد أكثر من خمسة وعشرين عاماً من صدور رواية قلب الظلام.

" حين كتب الطيب صالح روايته في أواسط الستينات، كانت مجتمعات العالم العربي وأفريقيا والعالم الثالث قد خرج أكثرها لتوه من ربقة الاستعمار العسكري الطويل، مفعمة بالأمل في التخلص من آثاره المزمنة، أو من جرثومته التي تركها في نسيج هذه المجتمعات . لم تكن موجات الهجرة إلي الشمال قد تشكلت ملامحها أو تجددت مواسمها علي النحو الذي نراه في حركة ما بعد الاستعمار. لم تكن آليات رصد العلاقة بين السلطة والمعرفة، أو بين الإمبريالية والثقافة، قد تشكلت علي النحو الذي يمنح مثقفي ما بعد الاستعمار أدوات للتحليل ." [٢]

لذلك جاء سرد الرواية في حالة تعبر عن تناص لحالة النص مع رواية قلب الظلام، " ويعني " التناص " أن النصوص ترتبط مع نصوص أخري، في الماضي والحاضر معًا. وتلك الارتباطات تؤسَس بوسائل مختلفة : من خلال الإشارة الصريحة لموضوع أو فاعل رئيس، من خلال إشارات لنفس الأحداث، عن طريق التلميحات أو الاستطرادات، وعن طريق تحويل مناقشات رئيسة من أحد النصوص إلي نص آخر ."[٣]

ولكن كما أشرنا في بداية الدراسة أننا نعيش وحدة التجربة المعاكسة. لقد أقر الطيب صالح أن طغيان (مصطفى سعيد) على روايته لم يكن في الحسبان ولكن

---

[١]- المرجع السابق، ص ١٤٦-١٤٧ .

[٢]- عدوي الرحيل ، خيري دومة، ص٤٥ .

[٣]- مناهج التحليل النقدي للخطاب، روث فوداك – ميشيل ماير، ترجمة/ حسام أحمد – عزة شبل،المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط أولي، ٢٠١٤، ص ١٨٦.

مسار الرواية ظل يسير في هذا الاتجاه ، في حين فقد هو القدرة علـــى الســـيطرة علي مجرى الأحداث " عندما بدأت أرسم الشخصية لـــم أكـــن أقصـــد أن تكـــون شخصية (مصطفى سعيد) طاغية إلى هذا الحد، ... ثم لم ألبث أن أحسست بهـــذه الشخصية تكبر وتحاول أن تطغى، فحاولت أن أحيطها بشخصيات فرعية. ولكـــن اعتقد أن تجربتي لم تنجح. وأعتقد – ككاتب– بالرغم من كل ما لقيت هذه الرواية من نجاح، أن من الأشياء التي لم أنجح فيها هو أنني لم أكبح جماح أو شكيمة هذه الشخصية بحيث يكون دورها واضحاً من سياق القصة نفسها".[١]

ولعلنا نتفق بأن من لا أرض له لا إحساس لديه بالهوية، بـــل يـــود المؤلـــف أن يوضح أن ما فعله الاستعمار مع مصطفى سعيد واقتلاعه من جـــذوره ومحاولـــة تهجينه بينهم وتنشأته، هذه هي الجرثومة الفعلية أو الأكذوبة، كمـــا يـــذكرنا بـــين الحين والآخر، الأكذوبة المتبادلة بين من حاول ففشل وبين من أُقتلع من جـــذوره، فلا مأوى ولا هوية له.

وهنا نجد أن (مصطفى سعيد) أحد الأشخاص الذين ظنوا أنهم يمثلـــون أوطـــانهم ولكنهم لا يمثلون إلا من صنعهم بالفعل، الخدعة والأكذوبة هي عدوى الاهوية .

مثَل سعيد دورانًا حتميًا في السرد ففُرض على المؤلف، أو لنقـــل نتيجـــة لســـوء الطقس النفسي والبيئي، بمعنى اقتلاعه من جذوره لينمو في بيئـــة أخـــرى غيـــر ملائمة لبيئته الأصلية ليتم ريه بماء بارد وهو حار جاف، فكان المرض وكانـــت الأكذوبة كنتيجة حتمية لسلبيات الاستعمار وفكره الخاطئ .

---

[١]– الطيب صالح روائياً وناقداً، حوار مع الطيب صالح منشور ضمن " الطيب صالح عبقري الرواية العربية" إعداد مجموعة من الكتاب العرب، دار العودة، بيروت، ١٩٧٦، ص ١٢٥– ١٢٦.

ولعل هذا أيضا أول تشابه غير معد له بين "جوزيف كونراد" و"الطيب صالح" الروايتين فالأول كان يتمنى ألا تكون روايته قاتمة، لكن جاءت على عكس ما تمنى.

" قبل نشر الرواية كتب كونراد إلي صاحب مجلة (بلاكودد) قائلًا : "العنوان الذي أفكر فيه هو " قلب الظلام " ولكن الرواية ليست قاتمة . إن الفكرة التي تكمن وراء النص وتبرره هي جريمة غياب الكفاءة، والأنانية الصرفة في العمل الجاري في أفريقيا من أجل النهوض بها ونقل الحضارة إليها. " [١]

والثاني لم يرغب في تغليب سيطرة (مصطفى سعيد) على مجرى الأحداث بهذا الشكل الطاغي وقد وقف مكتوف الأيدي تجاه سطوة الشخصية.

" لقد مثل مصطفي سعيد أثناء حياته في القرية نموذجًا للعمل الفعال،... غير أن هذا النموذج لم يكن له أن يستمر... مادام المستضعفون في الأرض لم يصلوا إلي الحكم بعد، ومادام الاستعمار لم ينته حقًا من دواخل البشر المستعمرين علي المستوي الذهني، بغض النظر عن خروج قوات المحتل . " [٢]

والسؤال هنا هل ردَ الطيب صالح عن جميع الجزئيات التي وردت لدى جوزيف كونراد عمداً، أم عن طريق توارد الأفكار والحبكة السردية؟

نرى أنه رد عليها عمداً، ولكن كمستعِمر، كشخص يرضخ تحت وطأة الاستعمار، ولم يرد عليها بوصفه راويًا قرر أن يكتب أو يؤلف. حيث نعمل في هذه الدراسة بعدين كل البعد عن مجمل النقد الذي تناول الروايتين، ولكن نحاول من خلال حيثيات الأدب المقارن وأدواته، أن نضع الروايتن في دائرة الضوء والسرد

---

[١] Joseph Conrad,Letter to William Blackwood, David S. Meldrum, ed : William Blackburn, Duke University Press, 1958, 37 .

[٢] – في نظرية الأدب محتوي الشكل : مساهمة عربية، سيد البحراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط أولي، ٢٠٠٨، ص١٣٤.

المزدوج، لنجيب علي السؤال الذي طرح وحاول البعض الإجابة عنه، هل قرأ الطيب صالح لكونراد وتأثر به؟

لتأتي الإجابة بأنه قرأ وبرهن علي إدعاءات جوزيف كاملة، ليقف أحدهم في بداية القضية والآخر في الطرف المقابل، وبينهم الزمن بكامل تفاصيله. بل ناداه بصفته داخل الرواية في حوار مباشر، حين لخص الطيب صالح المشهد برمته عندما وجد الراوي كلمات الإهداء علي إحدي كراسات مصطفي سعيد، التي وجهها للذي يرون الأشياء بيضاء أو سوداء،

شرقية أما غربية، بكل ما تحمله هذه الكلمات من رمزية وإشارة قوية لكاتب قلب الظلام.

" إلي الذين يرون بعين واحدة ويتكلمون بلسان واحد ويرون الأشياء أما سوداء أو بيضاء، أما شرقية أو غربية ." الرواية ص ١٥٨.

ولو أننا تخيلنا مشاهد ميلودرامية في شبه حوار مسرحي يجمع بين الكاتبين لوجدنا حواراً توافقيا للسؤال والإجابة، للاستنكار والتوضيح، للسيطرة والتبرير، للهجوم والدفاع بين الروايتين ،لتعبر هذه المشاهد عن مدي قسوة وصعوبة المواقف التي لازمت كلاً من كاتبي الروايتن ، مشاهد جاءت علي مسافة في البعد الزمني بين من كان مستعَمرًا ،وأصبح مستعِمرًا.

لتأتى المشاهد على النحو الميلودرامي الأتي:-

المشهد الأول :- قلب الظلام ص ١٢.

"عندما تكون غازياً فإن ما تحتاجه هو القوة الهمجية فقط، وما من داعٍ للتباهي أو التفاخر عندما نملكها ونحصل عليها من حادث مفاجئ قد انبثق من ضعف الآخرين، لقد سلبوا بالقوة، فقط ما كان بإمكانهم الحصول عليه لأجل ما يتطلب الحصول عليه، لقد كان سلباً مفعماً بالقوة وقد استبد الأمر لينتهي إلى جريمة بلا

حدود، وقد تقبلها الناس بالعمى دون أن يبصروها، كمن يكون مناسباً للذين يحبذون التعامل في الظلام".

المشهد المقابل :- موسم الهجرة إلى الشمال ص ٥٩.

" وكونهم جاءوا إلى ديارنا، لا أدرى لماذا، هل معنى ذلك أننا نسمم حاضرنا ومستقبلنا؟ إنهم سيخرجون من بلادنا إن عاجلاً أو آجلا، كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بلاد كثيرة. سكك الحديد، والبواخر، والمستشفيات والمصانع، والمدارس، ستكون لنا، سنتحدث لغتهم، دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل. سنكون كما نحن، قوم عاديون، وإذا كنا أكاذيب، فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا".

المشهد الثاني :- قلب الظلام ص ٦٣.

" كنت احمل رسالة سماوية لجعلكم أناساً متحضرين".

المشهد المقابل :- موسم الهجرة إلى الشمال ص ٦٣.

" يسخروننا نحن المواطنين الصغار أولاد البلد لجلب العوائد، ويتذمر الناس منا ويشتكون إلي المفتش الانكليزي. وكان المفتش الانجليزي طبعاً هو الذي يغفر ويرحم. هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا، نحن أبناء البلد، وحبهم هم المستعمرون الدخلاء."

المشهد الثالث :- قلب الظلام ص ٣٠.

" أشكال سوداء تنحني وتربض وتنطرح أرضاً لتجد لها مكاناً بين الأشجار المستندة إلى الجذور، وقد التصقت بالتراب، فقد خرج نصفها من هناك في حين خرج النصف الآخر ليتسلل وراء الضوء المعتم ليجسد خير تجسيد الألم والمعاناة والتشرد واليأس،...لقد كانوا يموتون ببطء وعلى مهل،... فهم ليسوا أعداء وليسوا مجرمين، ولا ينتمون بعد إلى أبناء الأرض، وما هم إلا أشباح سوداء تجسد المرض والجوع ".

المشهد المقابل :- موسم الهجرة إلى الشمال ص ٦٩.

"بينما انبرى (منصور) يفند أراء (رتشارد)، أخلدت أنا إلى أفكاري، ما جدوى النقاش؟هذا الرجل – رتشارد – هو الآخر متعصب بطريقة أو بأخرى. لعلنا نؤمن بالخرافات التي ذكرها، ولكنه يؤمن بخرافة جديدة، خرافة عصرية، هي خرافة الإحصائيات. ما دمنا سنؤمن بإله، فليكن إلهاً قادراً علي كل شيء. أما الإحصائيات الرجل الأبيض، لمجرد أنه حكمنا في حقبة من تاريخناً، سيظل أمداً طويلاً يحس نحونا بإحساس الاحتقار الذي يحسه القوى تجاه الضعيف" .

بضع من المشاهد دارت بين رحى الصراع بين الشرق وبين والغرب غير مكترثة بالمسافات الزمنية البعيدة ولكنها جاءت من لحظة مخاض واحدة لحظة الصراع والألم؛ لتجيب عبر الزمن وترد أيضاً بنفس الأسلوب الروائي المحكم على إدعاءات الطرف الأول الذي ظن أنه امتلك زمام الأمور، غير متصور أنه بعد مرور الزمن سيسمح للطرف الثاني بالدفاع عن نفسه ودحض التهم المنسوبة إليه.

" إن جرثومة الاستعمار لم تتوقف عند مصطفي سعيد الذي شُوهت سيكولوجيته بين الاستسلام والرغبة في المقاومة التي تحولت إلي حقد ورغبة في الانتقام المزيف عبر الجنس، والذي هُزم فيه في النهاية علي يد جين موريس، وإنما امتدت هذه الجرثومة إلي كل من تعامل مع المجتمع الأوربي، وبصفة خاصة الراوي وحُسنة بنت محمود، ورغم أن مصير الراوي لم ينته إلي الموت كمصير حُسنة، إلا أنه ميتٌ بفعل فقدان القدرة علي حياة اكتشاف الذات الحقيقية، والقدرة علي ممارسة الفعل الحقيقي في حياة مجتمعيه؛ لأنه ظل متمزقًا بين القيم التقليدية وقيم الحرية الفردية التي تعلمها – قسرًا – من مصطفي سعيد، وتعلمها كلاهما – عنوةً – من المحتل الأجنبي . وبالتالي يستحيل تحقيقها في مجتمع تقليدي لم يتم تحديثه تحديثًا حقيقًا . "[١]

[١]– في نظرية الأدب محتوي الشكل: مساهمة عربية، سيد البحراوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط أولي، ٢٠٠٨م، ص ١٣٤ .

كتب وعبر كل مؤلف عن تجربته من منظوره الخاص، ومن منطلق المعتقدات التي كانت سائدة في عصره ومن ظل تجربة مر بها كل واحدٍ منهما.

(فجوزيف كونراد) سافر بالفعل ولم يستطع أن يكمل رحلته وكاد أن يُصاب بانهيار عصبي، مثلما حدث مع(كوارتز) بطل من أبطال روايته، مع تغيرٍ يسير في النهايات.

" إن العلاقة بين طيف المستعَمر المستكشف الصامت في النص ومغامرة مارلو تتيح لنا فهم العلاقة بين قلب الظلام بمنطقها الخاص والواقع التاريخي الذي أنتجها، كذلك تمكننا من رصد ما أدخله كونراد من تعديلا علي نموذج المستكشف،... إن المستكشف قاهر الظلام وحامل مشعل التقدم في رواية كونراد قد بدأ انسحابه إلي مواقع دفاعية. وبهذا المعني تتنبأ رواية قلب الظلام بالمستقبل، وتستشرفه ."[١]

كما كتب الطيب صالح من واقع تجربته الحياتية أيضاً داخل وخارج الوطن، فقد عاش تجربة الاستعمار كاملة، كما عاش تجربة ما بعد الاستعمار كاملة أيضاً، فهو هنا يشبه الراوي الذي لم يذكر له اسم وإنما كانت مهمته النصية كشف الأحداث والتعليق عليها. ونرى أنه فشل حتى في هذه المهمة فقتلت " حسنة بنت محمود"،

" ليتني عملت بنصيحتك وتزوجتها " الرواية ص ١٢٥.

كما أنه تركنا في حيرة من أمرنا هل مات " مصطفى سعيد"، مرة يؤكد ذلك بأدلته الخاصة، ومرة ينكره أيضاً بادلته الخاصة، ومرة يحاول الفرار والهروب من جميع التفسيرات بأنه لم يوجد في الأساس،إنه أكذوبة في محاولة منه لإثبات أن (مصطفى سعيد) بكل ما فعله بكل المساحة التي نالها من السرد ما هو إلا حالة ولن يقرر مصيرها فهي تناسب كل فرد، وكل زمان، وكل مكان .

---

[١]– صيادوا الذاكرة، رضوي عاشور، ص ١٦١ .

" بهذا المعني تنجح الرواية نجاحًا باهرًا في تقديم أزمة الطبقة الوسطي الحديثة في المجتمع السوداني، وفي كل المجتمعات المستعَمرة، وتمسك بتلابيب هذه الأزمة في أعماقها السيكولوجية والعقلية والوجدانية وليس علي مستوى السلوك الظاهري."[١]

فرض الاستعمار ظلة علي الروايتين، في ظاهرة أتاحت للنصين تسجيل الأحداث، والدفع بها للقارئ لمشاركته في قضايا ينظر لها من منظور وأحد، مع أو ضد .

نتائج البحث

من خلال الدراسة لكلا النصين قد تبين الآتي:_

إن حياة الشعوب بجميع ما تحتويها من مظاهر حضارية مختلفة تكون أقرب للاستيعاب عندما تأتينا علي شكل سرود. فالسرد يقرب لنا الحقائق ويرصدها بشكل دقيق، كما أن عناصر التشويق في السرد يجعل منه عنصرًا جاذبًا للقراءة والتمعن .

عندما توجه السرد إلي تناول تاريخ الشعوب الراضخة تحت وطأة الاستعمار نتج عن ذلك ما أطلق عليه (الكولونيالية) أو أدب ما بعد الاستعمار، ذلك النوع الذي رصد تلك الممارسات، وأرخ بدقة لتلك الحقبة من الزمن.لينتج نوعًا آخر كرد فعل عن هذه الممارسات أرخت هي الأخرى لوجه النظر المقابلة.

إن إخضاع النصوص الروائية للمقارنة يتيح الفرصة أمام الظواهر اللغوية الخفية للظهور، كما أنه يكشف عن علاقات الترابط والتضاد التي توجد بين النصين.

[١]– في نظرية الأدب محتوى الشكل: مساهمة عربية، سيد البحراوى، ص ١٣٥.

المراجع العربية

– في نظرية الأدب محتوي الشكل: مساهمة عربيـــة، ســـيد البحـــراوى، الهيئـــة المصرية العامة للكتاب، ط أولي، ٢٠٠٨م.

– عدوى الرحيل، " موسم الهجرة إلي الشمال" ونظرية ما بعد الاستعمار، خيـــري دومة ، دار أزمنة للنشر والتوزيع، ط أولي.

–دليل الناقد الأدبي، تأليف سعد البازغى وميجان الرويلـــى، بيـــروت، المركـــز الثقافي العربي، ٢٠٠٠.

المراجع المترجمة إلي العربية:–

المصطلح السردي، جيرالد بيرنس، ترجمة/ عابد خزنـــدار، المجلـــس الأعلـــى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

مناهج التحليل النقدي للخطاب، روث فوداك – ميشيل ماير، ترجمة/ حسام أحمـــد – عزة شبل،المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط أولي، ٢٠١٤.

المراجع الأجنبية

Fanon, Franz. TheWretched of the Earth,Translated by Constance Farrington,Penguin,London,1967.

-said,Edward.Orientlism,pantheon Book,NewYork,1978

Ashcroft, Bill, Gareth Griffiths, and Helen Tiffin , The Empire WRITES Back ; Theory and Practice in POST – Colonial Literatures , p 2 .

- literatures, Routledge, London and New Yoruek, 1989,p:2.

SIGNIFICANT Incongruities: Areassesment of corads Heart of -Darkness .

Josef Conrad, lettrs to William Black wood &DavidsMeldrum,ed, William Blak burn, Duks university press, 1958 p 37.

Josef Conrad, Youth, Heart of Darkness and the End of the tether, -London 1961 .

"Literature in the Reader . Affective Stylistics, " New history II (1970) : 23-28 ، وآخرون بارترولانLiteraryS/Z

نفسهAnalysetextuelle d,un contd,edgar " in: Semeotique narrative et textuellepp وللمؤلف

Joseph Conrad,Letter to William Blackwood, David S. Meldrum, ed : William Blackburn, Duke

University Press, 1958, 37 .

الدارسات العلمية

دراسة نشرت باللغة الانجليزية عام ١٩٨٣ بعنوان

جاءت هذه الأسئلة في نهاية مقالة تعريفية على شبكة المعلومات الدولية تحت هذا العنوان

Deepike a Bahri, Introduction to post colonaial studies, fal 1996.

. Edu/English/Faculty/bahriwww.emory